الحداثة : مسارها المعرفي

وأوهام فائضها الخارجي

د. محمد العربي ولد خليفة

(رئيس المجلس الشعبي الوطني " جامعي ")

1) الحداثة وتأسيسها المعرفي

بدأ استعمال مفهوم الحداثة أو التحديث (Modernism) باعتباره مصطلحا ابستملوجيا في إيطاليا سنة 1904، لتمييز التيار المجدد في اللاهوت الكنسي الكاثوليكي، وقد اعتبر الكرسي البابوي مناهج البحث في علوم الدين تمردا على التوجيه التقليدي للفاتيكان وتعاليمه المدرسية Scolastiques المتوارثة منذ تأسيس الكنيسة على أيدي القديسين الأوائل.

إذن، بالتوازي مع أطروحات الكنيسة وامتدادها في ثقافة المجتمع فإن التحديثية هي أيضا مقولة تخص المناهضين للمدرسية أو (السكولاستيه)، أو من سمتهم الكنيسة "الأعداء من الداخل"، ويرى بولا (E. Pullet) في كتابه عن التاريخ والاعتقاد والنقد في الأزمة التحديثية، إن فهم إشكالية الحداثة ينبغي أن يندرج في ثلاثة مستويات: (ب. بولا، كاسترمان باريس ط-2-2003):

1- المستوى الكرونولوجي للصراع بين العلم والإيمان وخاصة بعد المجمع الكنسي الثاني في بداية هذا القرن.

2- تحليل المناظرات المذهبية والإيديولوجية داخل الكنيسة بفروعها المختلفة، وبين الكنيسة المسيحية بوجه عام ومحيطها الاجتماعي والثقافي.

3- فهم وتحليل الظواهر الاجتماعية – الثقافية التي حركتها الكنيسة، أو التي كانت ردا عليها، أو امتدادا لنفوذها ولكن إشكالية الحداثة انتقلت بسرعة من الجدل داخل الكنيسة وحولها، إلى إنتاج الحداثة عن طريق التزامن بين الثورة التي حدثت في ميدان العلوم والفنون والآداب المتواصلة في غرب أوروبا إلى اليوم وبين الثورة الصناعية التي انطلقت في بريطانيا ثم عمت أوروبا وشمال أمريكا.

وهكذا تضاعف حجم المعرفة بالإنسان والطبيعة وتزايدت الثقة في العقل والآلة، وقد قدر ماك لوهان (Mc. Lushun) في كتابه (لفهم الميديا نشر سوي 1985) التطور المذهل للعلوم والفنون بواسطة الوحدة الزمنية على النحو التالي :

إن حجم ما أنتجه الإنسان من المعرفة والتكنولوجيا في ثلاث سنوات من العشرية (60–70)، يساوي ثلاثين سنة من بداية هذا القرن، وثلاثمائة سنة من عصر نيوتن، وثلاثة آلاف سنة من عصر الكهوف.

نقول إن إشكالية الحداثة أو التحديثية انتقلت من نطاق الكنسية إلى ميدان الثورة العلمية والصناعية، غير أنها في هذا المجال أيضا لم تجد حلا، فليست المذاهب الوجودية (existentialists) والحركات الدينية وحركات "الخضر" من دعاة حماية الطبيعة إلا طرحا جديدا لإشكالية الحداثة، ولكن بتعقيدات أشد من سابقتها تظهر في عشرات التيارات التي ظهرت في النصف الأخير من القرن العشرين في صورة التجريدية في الفن التشكيلي والشخصانية (Personnalisme) والبنيوية (Structuralism)عند شتراوس وليفي برول، والهروب الجماعي إلى الريف وأهمية الجمع بين الديمقراطية والمسيحية في أحزاب تحمل هذا الاسم، فقد حكم الحزب الديمقراطي المسيحي إيطاليا وأغلب البلدان الاسكندينافية ويحكم اليوم ألمانيا برئاسة المستشارة ميركل، والملاحظ أن نفوذ هذه الأحزاب قد تزايد بعد الحرب العالمية الثانية للرد عن تنامي الأحزاب الشيوعية في أوروبا وظهور الاتحاد السوفيتي كقوة سياسية إيديولوجية على الساحة الدولية، وقد اضطرت الديمقراطيات المسيحية لعقد متوافقات "تاريخية" مع الأحزاب الشيوعية القوية مثلما حدث في إيطاليا في مستهل السبعينات.

أما في الجزائر وباقي المنطقة العربية والإفريقية فليس للحداثة سوى معاني مجازية، بسبب ضعف وتيرة الإنتاج المحلي للحداثة. وتستخدم النخب الثقافية والسياسية هذا المفهوم للإشارة إلى مدلولين هما:

1- التراكم الإبداعي للفكر العربي الإسلامي وهو تراكم على درجة كبيرة من الأهمية في سياقه الحضاري والتاريخي، ولكنه الآن أصبح جزءا من الحركة المستمرة للتاريخ، وينبغي القول بأنه لا يعتبر الآن إبداعا على الإطلاق، أي أنه ليس في موقع قيادي في الفكر الإنساني، وتأسيسه الحقيقي يتمثل في إخضاعه لنقد صارم (لا علاقة له بالتفاخر العنتري والرثاء) من طرف المعاصرين يسهل إثراءه من الداخل وتسريع حركته في ضوء المنجزات العلمية والتكنولوجية، وهذا هو الطريق الصحيح والشاق في نفس الوقت لزرع الحداثة والتقدم الذي اتبعه بلد مثل الصين الشعبية التي فرضت طب "الإبر"، على جامعة هارفارد وتحاول في نفس الوقت استيعاب تكنولوجيا الفضاء والتحكم في التيكات الخمسة (Les Cinq Tiques) وهي الانفورماتيك، والتليماتيك، والبيوتكنيك، والالكترونيك، والبيروتيك.

2- التراكم الإبداعي الغربي، وهو المدلول الأكثر شيوعا بين النخب التي تبنت في مستهل هذا القرن المعيار الأوروبي لتحديد مضمون الحداثة ومسعاها، وهكذا أصبحت الحداثة المنقولة شكلا لأن النخب المحلية لا تساهم فيها بشيء يذكر، أصبحت تعني مجرد التشبه بالأقوى وتقليده في محاسنه ومساوئه، ولعل المساوئ أكثر لأن المحاسن تتمثل في توفر شروط إنتاج تلك الحداثة، وليس استهلاك الفائض منها.

ولهذا السبب فشلت تجربتان على درجة كبيرة من الأهمية التاريخية هما تجربة محمد علي في مصر وكمال أتاتورك في تركيا، ويتمثل فشلهما في العجز عن زرع

الحداثة في المجتمع، واقتصار الاستهلاك الحداثي على حلقات ضيقة من الشعب تتميز عن الأغلبية الساحقة بالسلوك القشري في مستوى العلاقات الاجتماعية وبسبب ضآلة مخزونها الثقافي و"الخدمة" التابعة في مستوى الصناعة والتكنولوجيا، وقد وصلت الخدمة التابعة في السنوات الأخيرة في عدد من بلدان المنطقة إلى الافتخار بأنها مجرد قواعد لخدمة إستراتيجية العظمة والاستغلال للقوى الأجنبية.

ونظرة سريعة لمسار البلدين السابقتين نجد أنها تراوحت بين الانقلاب والحكم العسكري إلى خطاب حول المشروع الإسلامي بأسلوب تبشيري يظهر تحت رقابه العم سام الذي يتولى رسم حدوده السياسية، لا نتعجل في الحكم على أحداث مصر الحالية، ولننتظر ما ستؤول إليه التجربة التركية قبل نهاية العقد الثاني من هذا القرن، وهما مختلفتان عن التحديث البورقيبي في تونس القريب من الأتاتوركية ولكنه لا يعتمد إطلاقا على الجيش ولا نتعجل في التنبؤ بما ستؤول إليه الصراعات الحالية، وخاصة بعد التوافق على دستور وتبني ملامح مشروع ديمقراطي قد يخرج تونس البلد البار والصديق من عنق الزجاجة.

ولا ننسى أن انقلاب الجنرال أتاتورك استهدف إلغاء كل ما يذكر بالبعد الإسلامي للخلافة وتعويضها بصورة طبق الأصل للدولة الوطنية الغربية كما كانت عليه في عشرينيات القرن الماضي، وقد ارتأى أن ذلك هو الطريق لإنقاذ تركيا من احتلال التكتل

الغربي والتفكك إلى دويلات وقد نجح في ذلك، وهذا هو الجانب الذي أعجب به الإمام عبد الحميد بن باديس الذي كان يتطلع لتحرير بلاده من نير الكولونيالية.

من حق قادة تركيا أن يتذكروا ماضي الإمبراطورية العثمانية، وأن يعملوا على الحضور في ما يعتبرون مجالهم الحيوي التاريخي غير أن الحاضر قد فرض معادلات أخرى لتوازن القوة ومن أهمها صنع الحداثة وتأثيرها القوي في المجتمعات التي تتغذى الكثير من نخبها غربا وتنام شرقا.

إن الدولة التي حملت لواء التحديث في النصف الثاني من القرن العشرين، لم تضمن لخطابها الثوري أو الليبرالي أي محتوى معرفي يؤسس التحديث داخل المجتمع وينشر آثاره في العمق، فقد كان (ومازال)، التشبه الشكلي بالآخر هو المقياس الأهم للحداثة، ويعلو في الساحة جدل بين السلفية الماضوية التي لا تميّز بين سلف صالح وآخر تقديسي أشبه بعبادة الأجداد (Culte des ancêtres) وبين مشيدي الحضارة من الساسة الأذكياء والعلماء والمبدعين والقادة الذين أعلوا من شأن وطنهم، وهم الذين يستحقون أن تخلّد سيرتهم وتحمل المدن والشوارع أسماءهم وعلى أي حال فإن الاعتزاز بالماضي والعرفان لما قدمه نساء ورجال الأمة أمر مشترك بين كل الشعوب، ولكن من المهم أن لا يحجب المستقبل أي أن ترى الأجيال اللاحقة أن غدها يمكن أن يكون أفضل من أمسها وليس العكس، فلا تعيش فقط على ما خلفه الأجداد من ثروات مادية ومعنوية، وهي ثروات ينبغي العناية بها واستثمارها في الداخل والخارج، فعلى سبيل

المثال تمثل آثار الفراعنة في مصر التي تعود لآلاف السنين معلما حضاريا يؤمه السياح من كل أنحاء العالم كما يحظى برج إيفل في فرنسا بجاذبية زوار باريس كما يتمتع متحف شكسبير بأهمية كبيرة لمن يزور بريطانيا، ويوجد في الجزائر العديد من مقامات العلم والإبداع، من بينها خلوة ابن خلدون التي سجل فيها سبقه في البحث العلمي، والاجتماعي ولا يعرفها الكثيرون من زوار تيارت، فضلا عن العلماء والمبدعين في الأزمنة الحديثة، غير أن التعريف بالماضي الحضاري للأمة يتطلب من النخبة أن تضيف إليه إنجازات أخرى حداثية، أي تتقدم بذلك الماضي إلى آفاق أرحب تصنع أمجاد الأمة.

الجزائر والصراع حول مشروع الحداثة قبل الثورة وبعدها

في الجزائر كانت الحداثة ولا تزال مطلبا لدى شريحة من المجتمع منذ صدمة الاحتلال الاستيطاني وما أعقبه من مقاومة ثقافية ومسلحة طويلة، كان الأمير عبد القادر من روادها الأوائل فقد أدرك هول المسافة التي تفصل بلاده عن العدو الذي جاء من وراء البحر، بما وصل إليه من قوة صناعية في بداية القرن التاسع عشر(19) هوة لا يمكن تجاوزها بقرارات وفي سنوات قليلة، فالتقدم والحداثة يكونان نتيجة لتراكم المعرفة والخبرة ولمدة طويلة تقودها إرادة سياسية وما يسميه الأستاذ غريد المثقف الجمعي الذي يأخذ من الآخرين ما ينمي رصيد وطنه المعرفي والجمالي، ولا يكون مجرد صدى باهتا

لإبداعات أخرى، أي لا تضيف شيئا يذكر للتراث العالمي في العلوم والفنون والآداب، تحمل خصائص حضارته بما فيها من أصالة وتنوع.

انقسمت النخب طيلة الحقب التالية إلى فئات تتقبل استيعاب مظاهر الحداثة الوافدة والسعي للوصول إلى منابعها ومحاولة الاندماج في نمط الحياة الخاص بها، وفئات أخرى تحذر من عمليات الاحتواء والاستقطاب التي أعقبت وتواصلت مع القمع والاستئصال، وفئات ثالثة عملت على الاستفادة مما يمكن الحصول عليه من مناهج وعلوم من جهة وإحياء تراث الجزائر العربي الإسلامي والاهتمام خاصة بعلوم التاريخ والتعليم، وهو ما نجده في أطياف الحركة الوطنية من الفترة ما بين الحربين حتى خمسينيات القرن الماضي.

انطلقت بعد التحرير موجة جديدة ظهرت خلال سبعينيات القرن الماضي وخاصة في مجالات القصة والرواية والشعر، وتواصلت في خط تصاعدي حتى نهاية القرن والعقد الأول من هذا القرن، حيث ظهر كتاب يبدعون باللغة الفرنسية تكونوا في جامعات عربية وآخرون يبدعون بالعربية وتكونوا في معاهد تستعمل اللغتين أو إحداهما، ولكل دوافعه وأهدافه، وفيما يتعلق بالعلوم الاجتماعية، فقد نشرنا دراسة للأستاذ علي الكنز مرفقة بتحليل وتعقيب في مجلة المجلس الأعلى للغة العربية (معالم) عدد (4) سنة 2011، وعلى أي حال فإن التراكم الإبداعي والبحثي في حاجة إلى دراسات نقدية

ومقارنة لقياس المسافة التي قطعتها النخب نحو تأسيس الحداثة ومدى تأثيرها في المجتمع ومؤسساته.

ولا شك أن ثورة التحرير كانت أكبر تحول شهدته الجزائر فقد شملت كل طبقات المجتمع، وكان الخلاص من ظلام الكولونيالية هو المفتاح نحو الدخول إلى طريق الحداثة الطويل أي تأسيسها المعرفي، وقد بذلت جهود ناجحة وأخرى أقل نجاحا نستثني منها العشرية السوداء التي هي سبب ونتيجة لكل التفاعلات التي عرفتها الجزائر في تاريخها أثناء ليل الاحتلال وبعده وهو ما يدعو نخبنا المفكرة والسياسية إلى التوافق حول مشروع للمجتمع يستنطق تاريخه ويلبّي تطلعات أجياله، فنحن نسائل أنفسنا عما وفرناه في صندوق الادخار والاستثمار من معرفة وخبرة واكتفاء نسبي في حاجاتنا الأساسية وقد خصصنا للمسائل السابقة دراسة بعنوان: دروس من الماضي وآفاق المستقبل نشرت في خمس حلقات في صحيفة مساء الجزائر (Soir-d'Algerie) بتاريخ 27 حتى 31 من شهر جويلية 2013، والثقافة في الجزائر من الاقتلاع إلى الاستقطاب (الجزائر والعالم ملامح قرن وأصداء ألفية 2007)

2- التشرد الحضاري

لم يكن بالإمكان وضع أساس معرفي (ابستمولوجي)، سلوكي للحداثة بسبب الحرب الشعواء التي شنتها قيادات غير مستنيرة على حرية الفكر، والفكر الحر بالمعنى الهيغلي أي جدلية الأطروحة ونقيضها ثم التركيب بينهما باعتبارهما فرضيتين أو وجهتي

نظر يتضمنان ذهنيا ما يقربهما من الحقيقة، وهي غير نهائية لأن جدلية هيغل تعيد المركب إلى مجرد أطروحة أخرى قابلة بدورها للجدل، ولذلك عندما حانت الفرصة وانهزمت الأنظمة العربية في مجابهاتها غير الجادة مع إسرائيل سنة 1948 ثم سنة 1967، انطلق النقد اللاذع من عنانه واعتبر الكثير من المثقفين أن الديكتاتورية هي أم التخلف وأبوه، فقد أدى كبت الحريات وتدجين الفكر وسيطرة ثقافة البلاط، إلى التشرد Vagabondage الحضاري لقسم من النخب والهزائم، المتلاحقة والتبعية المتزايدة للنظام الدولي وضغوطاته المتزايدة، أدى هذا الإقرار بالإخفاق والعجز عن تقديم البدائل، وخاصة في ميدان التنمية إلى موجة من رثاء الذات أو جلدها كما يقول شعراء النكبات، ولم يعد أمام شرائح واسعة من الشعوب العربية والإسلامية ومن بعض النخب سوى التفتيش في مواقف وأوراق السلف عن إكسير لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، أي أن خيبة الأنظمة هو أيضا إخفاق لحداثتها القشرية والمغشوشة، ويبدو لنا أن هذا الفشل هو من أهم عوامل ظهور البديل الإسلامي وتأثيره الكبير منذ عقد الثمانينيات بعد أن تشكك جيل السبعينات والثمانينات في الأطروحات الليبرالية لمفكرين سيطروا على الساحة مثل زكي نجيب محمود وقسطنطين زريق وعبد الله عبد الدائم، فإنّ الجيل اللاحق لا يرى بوضوح البدائل التي يقدمها فكر آخر يتردد بين الليبرالية والاشتراكية الماركسية.

3- البحث عن الذات في الآخر

لقد شغلت قضايا الحداثة والمعاصرة والأصالة عددا من النخب في المشرق والمغرب نذكر منهم على سبيل المثال: علي احمد سعيد (أدونيس) في دراسة من مجلّدين صدرت بين 1974 و 1978 بعنوان الثابت والمتحول والطيب تزيني في كتابه من التراث إلى الثورة ومحمد عابد الجابري في دراسته بعنوان الخطاب العربي المعاصر سنة 1982 وزكي نجيب محمود في كتابه بعنوان: ثقافتنا في مواجهة العصر وقسطنطين زريق الذي نشر سنة 1977 دراسته بعنوان نحن والمستقبل وقد قام م. هيدسون M. Hudson من جامعة واشنطن (دي. سي). بدراسة مقارنة ونقدية صدرت سنة 1979 بعنوان: مستقبل العرب، مصاعب المخرج، وقد تنبأ فيه بأزمات عقدي الثمانينيات والتسعينيات في العالمين العربي والإسلامي، كما قدم الأستاذ جاك بيرك (وليد فرندة بتيارت) محاضرة عندما استضفناه في معهد العلوم الاجتماعية مستشهدا بملاحظاته الميدانية في كل من المغرب ومصر وبإحالات كثيرة على مقدمته للترجمة التي وضعها للقرآن الكريم ومن الدراسة التي أعدها بعنوان "العرب" وأرجع أزمة العالم العربي إلى النخب التي تراوح مكانها بين العجز والحيرة، والبحث عن الذات من خلال الآخر، ومن أحدث الدراسات الهامة تلك التي أصدرها الأستاذ اللبناني جورج قرم عن أزمة التحول في العالم العربي 2012، عن التنمية بلا نمو Growth والحداثة التي ينبغي أن تنقل المجتمع من الانقسام إلى طوائف وأعراق وسيطرة الكمبرادور إلى المواطنة القادرة على التحديث داخل المجتمع، ويقدم

الباحث اللبناني جورج قورم كلا من كوريا الجنوبية واليابان ونمورها كنموذج لتوطين المعرفة والتحديث.

وقد أدت أزمة التسعينيات الخطيرة إلى ظهور نخب فكرية وسياسية واجهت التطرف السياسي تحت غطاء الدين بمواقف وخطابات يمتزج فيها الأدب بالإيديولوجية على طريقة المنشقين عن الكرملين في العهد السوفيتي، وتحظى تلك النخب في أوساط أروبية وأحيانا أمريكية باهتمام، وحتى بالإشهار والجوائز الأدبية نذكر من بينهم على سبيل المثال لا الحصر الكاتب بوعلام صنصال وبن تشيكو وياسمينة خضرا والباحث في التاريخ محمد حربي وبعضهم يقول ما يرضي أوساطا من اليمين واليسار في الغرب.

هناك أيضا قائمة طويلة من المنخرطين في أحزاب والكتاب في بعض الصحف الوطنية تملي علينا الوضعية الحالية واجب التحفظ، فنحن نحترم المواقف المبدئية وحرية الرأي التي لا توجد نخبة فاعلة بدونها، وفي انتظار التشكل المنتظر للمجتمع المدني ومقاييس التقييم للإبداع، فإننا نرى أن العالمية تبدأ من تقدير أثار الإبداع العلمي والفني والأدبي في المجتمع الأصلي لتصل بعد ذلك إلى العالمية وليس العكس، وهو ما يبرّر تساؤل الكثيرين عن التوظيف السياسي للجوائز المخصصة للسلام وللآداب، ولماذا من النادر أن يحصل عندنا مختصون في علوم المقدمة على تلك الجوائز؟ هل هو الفجوة الحضارية؟ ولماذا تكثر عندنا التكريمات الطقوسية المتبادلة وأحيانا لمن هبّ ودبّ ؟.

إذا ابتعدنا قليلا عن العالم الفرانكفوني الذي يجذب أغلبية النخب الأدبية والفكرية في بلادنا إلى دائرة أوسع هي العالم الأنغلو أمريكي فإننا نجد انخراطا واسع النطاق في مراكز البحث الكثيرة حول الجامعات والمؤسسات الاقتصادية تحت اسم قادة التفكير الاستراتيجي Think Tanks وكلها بإشراف القطاع الخاص ومؤسسات ثقافية على علاقة وثيقة بمراكز التوجيه والكثير منها متخصص في شؤون المنطقة العربية والإسلامية والإفريقية تنشر دوريا صحيفة نيويورك الأمريكية (The NewYorker) بعض خلاصاتها، ومن بين المؤسسات مركز لقادة التفكير للبحث والدراسات السياسية في عاصمة قطر ومن أبرز الباحثين فيه الأستاذ عزمي بشارة الذي يروج من الدوحة للفكر اللبرالي والديمقراطي وهو من أصل فلسطيني من عرب ما يسمى الداخل وبجنسية إسرائيلية، ويقابله أو لنقل على النقيض منه الداعية المصري يوسف القرضاوي الناشط في الفتوى حسب الطلب، فهل هما وجهان لعملة واحدة هي الدولار؟ غير أن الأقنعة حالة استلابية عبر عنها المفكر الأسود م.ك. لويوبو بطريقة نقدية ساخرة: ماذا يفعل هؤلاء السود من الأغنياء وخدمهم من الفقراء السود، إنهم يذكرون بعنوان كتاب الطبيب فرانتز فانون: جلد أسود وقناع أبيض، إنهم يقضون الساعات الطويلة في تسريح شعورهم المجعّدة وطلاء أجسادهم بأربعة مساحيق ليصبحوا بيضا ولكنهم لم يحصلوا إلا على صفة الملونين!

وأيا كان المدخل نحو الحداثة فإن التراث الثقافي الذي امتزج إلى حد بعيد بالمرجعية الإسلامية في جانبيها العقائدي والقيمي (القيم الموجهة للسلوك)، لابد أن تؤخذ بعين

الاعتبار، فبدل أن يكون الصراع بين عصرانيين وسلفيين أو تقليديين لا يملك أي منهما القدرة الفعلية للتأثير على المستقبل، ينبغي أن يكون الصراع (ونعني به هنا النقد ونقد النقد والإبداع)، حول طريقة تطويع الموروث العربي الإسلامي لمقتضيات العصر وتمثُّل (Assimilation) التراكم الهائل للمعرفة والتكنولوجيا برؤيتهم الخاصة ووفق ذاتهم التاريخية، فالمعاصرة والحداثة هما إلى حد كبير إسقاط (Projection) للذات التاريخية على المستقبل فهل تولد ذاتنا التاريخية المعاصرة في القرن الواحد والعشرين (ما بعد 2030م) أو الخامس عشر هجري (ما بعد 1440هـ)؟

4-) ظواهر الحداثة في المجتمع

ولتأييد هذا الطرح، يمكن النظر بسرعة إلى ما علق بأذهان النخب في بلادنا وفي المنطقة العربية من معالم الحداثة الأورو أمريكية المهيمنة على العالم من الفترة ما بين الحربين وانطلاق المشروع الجديد (New deal)، في الولايات المتحدة أولا، ثم في غرب أوروبا ثانيا، وهو المشروع الذي أدى إلى الثورة التكنولوجية المعاصرة، وسط تغيرات اجتماعية متسارعة، تنطلق من مراكز جذب ودفع متعددة أهمها الذات المفكرة كوجيطو إرغوصم (Cogito ergo sum)، التي تحاور نفسها وتتحاور مع من حولها، جدل بين العقل والإيمان يسمح كل منهما للآخر بأن يذهب إلى أبعد مدى، وينسى البعض عندنا عند الحديث عن التحديث والعصرنة أن ديكارت الذي وضع قواعد التفكير في كتابه المشهور "قواعد المنهج" (Discours de la method) ، يصل في تأملاته

الروحانية (Meditations) إلى حد التصوف والرهبنة، وأن باسكال الرياضي هو كاهن غارق في ميتافيزيقا الكون والإنسان، وأن ما بين غاليليو واينشتاين جسر دعائمه عقل وإيمان قد يكون أحدهما هو نقطة البداية ولكنهما في النهاية يلتقيان أمام بوابة المعرفة الكلية، التي يعتبر بيرغسون (H.Bergson) إن مفتاحها هو الحدس (Intuition)، أي ومضة تقع في منزلة –ما– بين العقل والروح.

إن الذي يجذب الاهتمام ويستقطب جزءا كبيرا من الجدل والصراع الدائر اليوم بين القيادات والنخب هو الآثار السسيولوجية للحداثة وليس منابعها الحقيقة ومن أهم الآثار المرتبطة بالحداثة كما صنعها الغرب ما يلي:

–1– تقليص الريف وتضخم المدينة (L'urbanisation).

–2– تفكك الولاء الجمعي العائلي والقبلي والقروي.

–3– التوزيع الذري للعلاقات، والفردية المطلقة (Atomisation–individualisme).

–4– الاستهلاكية وتشخيص المستهلكات بواسطة الإشهار الذي يفرض نوع وشكل السلع.

–5– تحرير المرأة من وصاية العائلة وضغوط الضمير الجمعي.

–6– كسر الحدود بين المقبول والمرفوض في العلاقات بين الجنسين، بل تشريع الجنسية المثلية في عدد من البلدان في أرويا والولايات المتحدة وأثيرت زوبعة في فنجان بعنوان غامض: الزواج للجميع على الرغم من استنكار محتشم للكنيسة وليكن ذلك

حداثة وديموقراطية ولائكية ولكن كيف ستحل مسألة التناسل وغريزة الأمومة والأبوة والنسب؟ ليس من شأننا الإجابة ولكن الشذوذ يبقى شذوذا ولو عمّ وتقنّن.

-7- اعتبار الجسم والمظهر قيمة عليا فالرشاقة بالنسبة للرجل والمرأة هي الشرط الأول للنجاح ويصبح الجسم قيمة مطلقة فيما يخص المرأة حيث تقوم صناعات كاملة لتخفيف الوزن والمساحيق لغرض بيع الرشاقة والمتاجرة بالجنس ومثيراته.

-8- الانتقال من الحرية والديمقراطية بالى براغماتية نفعية تفرض على الرأي العام نموذج الحياة والاتجاهات السياسية والثقافية والاجتماعية وتلعب أجهزة الإعلام القوية ومؤسسات قياس الرأي العام دورا هاما في نمذجه (Mödling)، المجتمع وتوهمه بأنه حر في اختياراته ونمط حياته.

وهذه النقطة بالذات هي التي عبر عنها المفكر اليساري الأمريكي أريك فروم (E. Fromm) بقوله أن مشكلة العصر هي كيف تكون لا ماذا تملك (How to Be not whatyohave).

5) الشراكة الحضارية والنظرة العلوية

هذه بعض الانعكاسات السسيولوجية للحداثة، لا ينبغي الحكم عليها من الموقع الحضاري الذي ننتمي إليه، بل من خلال السياق التاريخي الاجتماعي للبلدان التي أنتجت الحداثة في صورتها الراهنة، ولو سمحنا لخيالنا أن يحلق ويستحضر الصورة التالية وهي أن ينقل التليفزيون صورة للحياة في بغداد أو بجاية أو قرطبة أو القاهرة أو دمشق، أو فاس، أو تونس، في القرن الثالث الهجري، لمشاهدين أوروبيين في القرن

العاشر ميلادي ونسمع لاستجاباتهم لحداثة تلك المجتمعات في ذلك العهد، وهي حداثة كانت بدون شك في مرتبة قيادية، لنترك الجواب للتخمين، وعلى الرغم من أن الذي يهم هو حالنا اليوم وهو بين التفريط والانفراط، فإننا نجد جوابا على السؤال السابق عند ابن حزم الأندلسي وهو يصف في" الإحكام في أصول الأحكام انبهار الأسبان (القوط) بالحضارة والثقافة الإسلامية وتقليدهم للمسلمين في لباسهم وكلامهم وأشكال الترفيه والحرية التي تتمتع بها المرأة في الجزيرة الخضراء، حيث أن مجالس الشعر والفن وما يشبه عرض الأزياء تنظمها نساء ولا يمنع أحد من حضورها

وفي المقابل نرى النقيض تماما في الصورة التي يرسمها أحد كبار فلاسفة أوربا والعالم الحديث وهو الألماني هيغل (1770-1831) G.W.Hegel كما عبّر عنه في أحد نصوصه التي نشرتها موسوعة العلوم الفلسفية في ترجمتها إلى الفرنسية سنة 1970، فقد وصف هيغل كل شمال إفريقيا في محاضرة ألقاها بجامعة برلين بما يلي:

* " إنه بلد (يعني شمال إفريقيا) لا هم له سوى إتباع قدره وقدره كل شيء عظيم يحدث خارجه، بلد ليس له ملامح واضحة ولا أية ملامح يمكن أن تنسب إليه"، ولا ندري من أين استمدّ هذا المفكر هذا الحكم على تاريخ وتراث شعوب كان لها شأن في حوض المتوسط وجنوب الصحراء، فهل هي نزعة الأثنوسانترية والاعتقاد بتفوق الجنس الآري على كل البشر سابقا ولاحقا؟ ولكن ربما من المحتمل أن هذا الفيلسوف

الموسوعي لم يطلع على دراسات المستشرقين الألمان عن إسهامات الحضارة العربية الإسلامية في عهود الأنوار.

ترددت مثل هذه الأحكام القطعية التي تنكر استمرارية الحضارة الانسانية وشراكة العديد من الأمم في نموها وازدهارها، وبالنسبة للجزائر التي خاضت صراع البقاء قبل أن تهزم طغيان الكولونيالية فإن مشروعها الحضاري المجتمعي انطلق من جديد في بيان الأول من نوفمبر 1954 الذي وضع منطلقات جزائر ما بعد التحرير بوضوح وبطريقة قريبة من المعادلات الرياضية فالحداثة لا تلغي الماضي ولا تعني الاكتفاء باستهلاك الفائض المخصص للتصدير ولا شك أن مخبرها الحقيقي يتمثل في استنباتها في المدرسة والجامعة ونشرها أفقيا بين الشعب تحت لواء الحرية والعدالة والاستفادة بلا عقد من منتوجها بتطويعه وتوطينه في بلادنا وهي عملية طويلة النفس تقوم على إستراتيجية جسورة ترى المستقبل أمامها وليس خلفها.

خلاصة

لن تتولّد الحداثة وتنتشر في المجتمع بدون تواصل بين النخبة والجمهور عبر جسور طبيعية هي المنظمات الثقافية والسياسية التي تتمتع بحرية الفكر الذي ينطلق من معطيات الحاضر والقدرة على تشخيص نقائصه وانسدادا ته الموروثة والمستجدة

وإضافة ما يثمن وينمي ايجابياته، بعد نزع غشاوة السوداوية الذاتيّة وحرفة البرّاح الذي يروّج لبضائع مغشوشة للإثارة والتمويه والموقفان شائعان في بلادنا اليوم، وكلاهما عقبة أمام غرس الحداثة بمعانيها السياسية والثقافية والمجتمعية، فالتخلف حالة عامة ومعدية مثل الأمراض المتنقلة والحدّ من آثارها على المدى الطويل يتطلب من النخبة تخصيب الأرضية المجتمعية وغرس بذور الحداثة في المؤسسات القاعدية للمجتمع.

لا شك أن الديمقراطية هي الأرضية التي تتطور فيها الحداثة بحكم الشراكة بين النخبة في السلطة أو المعارضة وبين تنظيمات المجتمع وما توفره من هامش لحرية الرأي والموقف من القضايا التي تهم الناس، فإذا تمّ تضييق ذلك الهامش حدثت هزات ارتدادية تقلل من حظوظ السلطة للبقاء فيها أو العودة إليها.

القليل يصدّقون اليوم أنّ الديكتاتوريات التي عرفتها الانسانية في تاريخها الحديث هي الرائدة في تحديث بلدانها كما يشاع عن هتلر الذي أوصل بلاده إلى الدمار والتقسيم، و"الكوديو" فرانكو الذي انتصر في حرب أهلية وأخرج اسبانيا التي كانت إمبراطورية البحار من مجالها المتوسطي وكادت أن تلحق ببلدان العالم الثالث و مثله سالا زار ونظراؤه في جنوب شرقي آسيا وأمريكا اللاتينية وكلها كان أغلب المبدعين والعلماء فيها من المعارضين للاستبداد.

نقول أغلب لأن النخب ليست كتلة واحدة صمّاء إذ فيها تشكيلات تنتمي إلى مدارس وأخرى إلى مصالح وثالثة إلى روابط جهوية علنية أو متسترة كما هو الحال في المناطق المتخلفة من العالم.

للجزائر مرجعية دائمة في بيان الثورة المؤسس وفي أرضية الصومام وهما معا إرادة وتصور لبناء ديمقراطية اجتماعية في إطار مبادئ ومثل ديننا الحنيف وتجربة شعبنا التاريخية التي ينبغي على نخبنا النظر في مسارها واستخلاص دروسها وتجاوز التنويه اللفظي والمناوشات حول المواقع في ماضي صنعه الكثير من الشهداء والرجال والنساء العاديين، إن التقييم وإعادة التقييم والنقد المجرّد من الأهواء والإغواء تعتبر كلها من الطرق الموصلة للحداثة ولعقلنة الماضي والحاضر والتقدم نحو المستقبل أي بناء الحداثة وبناء مجتمع الحرية والعدالة والتقدم، الذي ضحّت وناضلت من أجله النخبة الثورية من الشهداء والمجاهدين الأوفياء، أليس الأمل مفتاح المستقبل، كما جاء في إحدى روائع جبران خليل جبران؟.